عصر النهضة

انتهينا بالحديث في الفصل السابق عن ريتشارد دي بري، أما في هذا الفصل فنبدأ بالحديث عن بترارك petrarchs، وعلى الرغم من أنه كان أصغر قليلا من دي بري الرجل الإنجليزي وذا صلة شخصية به، فإنه كان ينتمي إلى ثقافة مختلفة تماما. فبينما كان دي بري ينتمي إلى جماعة الكلاميين scholasticism ، كان بترارك مؤسسا لجماعة الإنسانيين Humanism الإيطالية.

لقد أدار بترارك ظهره للعصر الوسيط وولى وجهه شطر الآداب الكلاسيكية التي لم ير فيها ماضيا ميتا - كما رأى معاصروه - بل رأى فيها حاضراً حياً. ويعزى إلى شيشرون هذا التأثير في إنتاج بترارك الأدبي وسلوكه هذا المسلك. فقد تملكه حب وشغف كبير للمؤلفين الكلاسيكيين. ولكي ينهل من مؤلفاتهم تمسك بكل الذرائع التي توصله إلى غرضه، ومن بينها الرحلات الواسعة، واتصالاته الشخصية الكثيرة. وكانت المخطوطات التي يتعذر عليه اقتناؤها بالشراء أو الإهداء يقوم بنفسه على نسخها، وهكذا كان يدرس المواد التي يجمعها في أناة ودقة ويكتب ملاحظاته في هوامشها، نجد في كتابه De remediis Utriusqus fortunae (١)، حواراً كاملا يدور حول عقم تجميع الكتب دون الانتفاع بها. وكان يعلق أهمية كبيرة على عنصر الجمال في صناعة المخطوط كما كان وضوح النص عنده أعظم أهمية مما عداه، وكان خدمه يحرسون المكتبة حراستهم للمنار المقدس، كما أنه كان يقوم بنفسه بالعناية بكتبها، كما لو كانت أصدقاء جديرين بالرعاية، فالكتب كما كتب ذات مرة «تشيع البهجة في نفوسنا، تحادثنا، تواسينا وهي مشدودة إلينا أينما كانت برباط وثيق »(٢). وذات صباح وجدوه ميتاً ورأسه ملقى على دفتي كتاب مفتوح كان يطالعه.

فبترارك - كما نرى - قد خلق نموذجاً للمكتبات الخاصة بقي محتذياً حتى عصر مكيافلي

---

(١) ليس هناك ترجمة بالإنجليزية كاملة لهذا المؤلف سوى ترجمة متقدمة هي:
Thomas Wyne = phisicke againse, fortune, as Well prosperous as advere London, 1579.

(٢) Libri medullitus delectant. colliquuntur, consulunt et vivaqn and aminobis atque arguta familiaritate iunguntur. Letter to Giovanni d`Incisa. See pettarca- la Familiare, ed . vittorio Rossi. Florence 1932, 1941.1 139.

Machiavelli، ولم يفقد تأثيره كلية بعد [١]. وفي نفس الوقت كان بترارك قد تشبع بالمعرفة عن المكتبات القديمة، فبدأ يخطط لمكتبة عامة كبيرة، ففي عام ١٣٦٢ أوقف مجموعة كتبه الخاصة على بازلكا سانت مارك في مدينة البندقية، عسى أن يجد فيها الأذكياء والنبلاء بعض مايشيع في نفوسهم البهجة [٢]، وأعرب عن أمله في أن تقوم حكومة البندقية على رعاية وإنماء هذه المجموعة بطريقة تجعلها تضارع المكتبات القديمة، بالطبع لم تنفذ خطته ولكنها على أي حال مهدت الطريق للأجيال التي تلت.

وسار بوكاتشيو Baccaccio على منوال بترارك أستاذه وسيده ، فأصبح - بتأثير بترارك صياداً ناجحاً لا يتعب للحصول على المخطوطات ويذكر لنا بالمبالغة التي عرف بها الإنسانيون المتأخرون أنه صادف أثناء زيارته لمونت كاسينو مكتبة محترمة في حالة يرثى لها من الإهمال. ومثل هذا الحماس نجده عند سالوتاتي Salutati، قاضي قضاة فلورنسا، وكان يصغر بوكاتشيو بعشرين عاما. وكان يجد في البحث - شأن كثير من الدارسين في القرن الذي تلا - عن مخطوطة ليفي livy التي زعم أنها مخبوءة في مكان ما بأقصى الشمال. وكان حب الكتب في هذه الفترة يتخذ أحيانا أشكالا عجيبة مما عرضه لازدراء العامة واحتقارها. ومهما يكن من أمر فإن هذه الأفكار الجديدة والرغبات الطموحة التي تولدت في القرن الرابع عشر لم تؤثر إلا على قليل من الشخصيات، ولم يوجد من يستغلها على نطاق واسع إلا في القرن الخامس عشر، فما كان سابقا مجرد خطة أصبح الآن - في القرن الخامس عشر - حقيقة واقعة.

وكانت فلورنسا بفضل كازيمو دي مديتشي أهم مركز للأعمال الثقافية الفذة التي ندين بها للقرن الخامس عشر، ونحن لا نستطيع أن نقول بأنه خلق حاشية موسوية على شواطئ نهر أرنو Arno، ولكننا نعتبره وليها بأنبل ما تحمله الكلمة من معنى، فكان وزيره الأديب نيقولا Nic-coli معروفا برسالته عن «ضبط الهجاء» orthography ومجهوداته في تطوير خط النهضة الجديدة، وعرف فوق هذا كله بالجمع الدقيق المنظم للمخطوطات، فقد نمى مجموعة مكتبته الخاصة إلى ٨٠٠ مجلد، وكان كلما استنفد ماله سارع كازيمو الى مساعدته. ولقد وصف أحد

---

(١) تجد وصفا لإحدى المكتبات الخاصة العظيمة في القرن الخامس عشر في كتاب:
pearl kibro = the library of pico della Mirondola .N.Y. 1936.

(٢) Ad ingeniosorum et nobilium quos continget in talibus delecatari consoltionem. in p. Nolhae = Petrarque et, L' humanisme. new edition paris, 1907. 1, 164.

المؤرخين المحدثين نيقولا هذا بأنه «قائمة تجارية »[١] بكل ما يتعلق بالمكتبات والكتب من أخبار. وكان يرسل وكلاءه في كل مكان بحثا عن المؤلفات الكلاسيكية، وفي هذا المشروع كان يستغل قوافل تجارة آل مديتشي إلى أبعد حد، ولقد وصلنا أحد أوامره بالبحث الدقيق عن المخطوطات في الأديرة الألمانية.

ولم ينفذ أحد أعمال ومهام نيقولا برغبة وحماس أكثر من بودجو Boggie فمن مجلس كونستانس constance الذي ذهب إليه كسكرتير بابوي قام بزيارة الأديرة الألمانية والفرنسية وخاصة ديري سانت غال وكلوني. وجرياً على العادة أرسل شكواه المرة ناعياً الحالة التي تدهورت إليها المكتبات في تلك البقاع، وأعلن أن من واجبه تحرير تلك الذخائر من قيودها، ولما لم يستطع أن يفعل شيئاً آخر سوى أن ينسخ المخطوطات، وعندما مل ذلك آثر أن ينقذها عن طريق سرقتها تحت عباءته، ومن شاء أن يأخذ فكرة طيبة وتاريخية وإن لم تكن كاملة ودقيقة عن نشاطه في هذا المضمار فليقرأ القصة الطريفة التي كتبها س. ف. مير C.F.Meyer بعنوان Plautus im Nonnenkloster [٢] . ويجب أن نؤكد هنا أن بودجو وزملاءه هم الذين جمعوا الجزء الأكبر من المخطوطات الكلاسيكية اللاتينية التي استفادت منها الأجيال اللاحقة الشيء الكثير .

ولم يقل عن هذا أهمية الجزء الثاني من مشروع جماعة الإنسانيين الذي رمى إلى إنقاذ آثار الإغريق الأدبية بعد سقوط الامبراطورية البيزنطية، ففي البداية حمل المهاجرون من الشرق معهم ما أمكنهم من المخطوطات، ولكن الإيطاليين، الذين يدفعهم تعطشهم إلى المعرفة وحبهم إلى المغامرة، أسرعوا إلى هناك يبحثون عن المخطوطات. وكما كان بودجو يعمل في الشمال، كان أوريسبا Aurispaينقب هنا- في الإمبراطورية البيزنطية – عن المخطوطات في العقود الأولى من القرن الخامس عشر ويقول عن نفسه :«أذكر أنني تنازلت عن ملابسي لليونانيين في القسطنطينية مقابل الحصول على المخطوطات، ولم أستشعر من ذلك خجلا ولا ندماً»[٣]. وكان كثير من نبلاء فينسيا مثل جوستنيا يجدون لذة فائقة في اكتشاف المخطوطات وكان طبيعياً أن

---

(١) الكلمة الالمانية لهذه الترجمة هي "Borsenblott"وهي مجلة تجارة الكتاب الألماني وقد ترجمها بيس إلى ." trade list" ثم ترجمناها نحن الى قائمة تجارية تبعاً للترجمة الانجليزية (المترجم).

(٢) ترجمت إلى الإنجليزية بعنوان " Plautus in the Convent" ضمن مجموعة Germam dassics of the nine-teeth century ed. by kuno francke.

(٣) "Mèmini Constantinpoli Graeculis illis vestimenta dedisse ut codices acciperem, cuius rei nec pudet nec poenitat" Carteggio di Giovanni Aurispa = a cura Remigio Sobbadini Rome, 1931. 91.

تكون مدينة القنوات – فينسيا – بحكم علاقاتها بالشرق هي نقطة البدء بمثل هذه البعثات. وسرعان ما تحولت إلى مركز هام لتجارة المخطوطات اليونانية.

ولم يخفت هذا الحماس لجمع المخطوطات طوال القرن الخامس عشر، بل استمر حتى أيام لورنزو المديتشي Lorenzo وبوليتزيانو Polizianio، وفي نهاية هذا القرن أحدثت إعادة اكتشاف المخطوطات القديمة في بوبيو Bobbioأثرها في أحاسيس الناس بحيث عبر أحد الإيطاليين عن هذا بقوله «لقد انتهى عصر الاكتشاف البطولي»(١). ولم يلبث أن اكتشفت القيمة الكاملة لهذه الذخائر التي تجمعت مما أدى إلى خلق دافع قوي – خلال القرن الخامس عشر– إلى دراستها من الناحيتين الفيلولوجية والتاريخية ، حيث قام بالجزء الاعظم من هذه الدراسة عدد كبير من جماعة الأنسية من بينهم مفكرون عظام من أمثال بروني Bruni، فالا Valla وبيوندو Biondo .

وفي ذلك الوقت أيضاً تحقق مشروع بترارك الذي أثاره سالوتاتي بعد موته، والذي رمى إلى إنشاء مكتبة عامة كبيرة، فقد أوقف نيقولا في عام ١٤٣٠ مخطوطاته التي خلفها بعد موته «لاستعمال كل الناس » in publicaacommune utilitadi ognuno، وأوجد لها كاسيمو مكاناً ممتازاً في دير سانت مارك قام على تشييده بنفسه، كما فعل ذلك بالنسبة لكثير من المؤسسات الدينية ، على أنه لم ينس أن ينشئ مكتبة خاصة به، كانت نواتها مكتبة أخرى هي مكتبة لاورنت Laurent والتي عمل حفيده لورنزو على تنميتها، وساعده في ذلك بولينز يانو – الذي سبق ذكره– ثم لاسكاريس الإغريقي the Greek - Lascaris الذي قام برحلتين متباعدتين إلى الشرق لهذا الغرض.

وبعد فينسيا (البندقية) كانت فلورنسا أعظم سوق لبيع المخطوطات الكلاسيكية ، وقد اتخذ تجار المخطوطات وموظفوهم مكاناً لنشاطهم أطلق عليه شارع تجار المخطوطات via degli li-broi ، ومن هؤلاء التجار تاجر اسمه فزباسيانودا بستيشيVespasifano da Bisticc الذي كان متجره ملتقى المهتمين بهذه الشئون . وكانت لديه معرفة واسعة بالكتب وجمع مخطوطاته من قريب ومن بعيد ليرضي عملاءه من النبلاء. ويذكر أنه استخدم ٤٥ نساخاً لينسخ مائتي مجلد في ٢٢ شهراً طلبها منه كاسيمو، وكان بستيشي يقوم بنفسه على تصحيح النصوص ما أمكن ، وراعى في مواد الكتابة: من خط وصور وحلية وتجليد أن ترضي ذوق عصر النهضة ما أمكن.

وكان فردريك من مونتفلترو دوق أوربينو – Frederick Montefeltro Duke of Urbino من أهم وأحسن عملائه. ويبدو أنه أنفق ما يقرب من ٣٠,٠٠٠ دوكات Ducat في بناء مجموعة مكتبته

(١) R, Sabbadini = Le scoperte dei Codici latini egrci ne secoli xiv exv1,164.

الخاصة، كما استخدم ٣٠-٤٠ نساخا قاموا على نسخ المخطوطات بها، واختار لهذه المجموعة النفيسة من المخطوطات عدة حجرات في قلعته التي كان قد أنشأها حديثاً. ولم يدخر فردريك وسعاً في أن يبلغ بمكتبته ما أمكنه من مراتب الكمال بحيث ضمنها كل فروع المعرفة، وكان يأمر بإحضار فهارس المكتبات الأجنبية حتى من مكتبة أكسفوردو يقارنها بمجموعاته، ويقوم بملء الفجوات فيها. لقد قصد بهذه المكتبة أن تخدم أغراض الدراسة والبحث، ويبدو ذلك واضحاً ليس فقط في تصميم الصالة التي صممت بحيث تسمح بأقصى قدر ممكن من الضوء، بل يبدو ذلك أيضاً من الإرشادات الموجهة إلى الأمين والتي وصلت إلينا شاهدة على ذلك. لقد كان فردريك يتطلب في أمين مكتبته أن يكون « متعلماً، حسن المظهر، على خلق، يجيد إجادة تامة لغة الكتابة واللغة العامية » (١). مما يساعده على حفظ نظام المكتبة وإعداد الفهارس، وحماية المجموعات من كل ضرر، وعليه وضع التسهيلات الممكنة أمام كل من يرغب في الانتفاع بها، وعليه في النهاية أن يحتفظ بسجل مفصل بكل الاستعارات.

وكانت تأتي إلى بستيشي في فلورنسا طلبات من البلاد الأجنبية أيضا، على سبيل المثال من ملك هنغاريا ماتياس كورفينوس Matthias Corvinas الذي تزوج أميرة من نابولي، وبذا قوى الروابط بين هنغاريا وإيطاليا. كما اجتذب إلى بلاطه عدداً من الباحثين ورجال الأدب والفنانين وأصحاب الحرف الايطاليين وقصد من وراء ذلك أن يجعل من هنغاريا إيطاليا أخرى Ponnonian alteran ltaliam reddere على حد تعبير معاصريه ممن كتبوا عنه بعد وفاته. ولهذا السبب أثبتت مكتبته تفوقها في وجوه كثيرة على المكتبة الإيطاليه سواء من الناحية العلمية أو الفنية. وبعد موت كورفينوس في عام ١٤٩٠ تبددت مجموعته في بودا Budaشذر مذر حتى أننا نجدها الآن بين نفائس كثيرة من المكتبات الأوروبية الحديثة (٢). ولقد وجدت مكتبات أخرى مماثلة لمكتبات فلورنسا وأوربينو في بلاط كثير من النبلاء الإيطاليين في القرن الخامس عشر، في نابولي، وبافيا فيرارا وفينسيا (البندقية) على سبيل المثال. وكان حكام أرغون Argonفي نابولي من المتحمسين للثقافة الجديدة، ولذا اهتموا بالكتب والمكتبات اهتماماً خاصا. وكان هذا الحال مختلفاً عن الفيسكونت viscontiوالاسفورزيين Sforza الذين أضافوا بالتأكيد إلى مكتبة بافيا

(١) "docto, de bono aspecto, de bonea natura et bona et expedita lingua" C. Stornajola = Codices Urbinates Graeci bibliothecae Vaticanae. Rome, 1895, praef. xx.

(٢) من أجل نبذة تاريخية عن المكتبة انظر:

Geza Schütz "bibliatheca Corvina " library quarterly , iv 1934. 552, 564.

جزءاً من أسلاب الحرب ، ولكنهم اعتبروها أساساً جزءاًمتمماً لرونق بلاطهم.

أما مكتبة فيرارا فقد كانت ذات شخصية متميزة، وكانت أسرة است Esteالحاكمة هناك متمسكة بتقاليد الفروسية مع الثقافة الشائعة في عصر النهضة وانعكس هذا على طبيعة مكتبتهم، التي كانت تحتوي أيضاً على مجموعة من المخطوطات الفرنسية. وأخيراً فيما يتعلق بمكتبة سانت مارك Bibliotheca Marciana في فينسيا ، فيرجع الفضل في إنشائها إلى بساريون Bessarionالإغريقي الذي وصل الى مرتبة كاردينال ، وأصبح بؤرة عصر النهضة، وقد قام في عام ١٤٦٨ بإهداء مجموعته الثمينة التي تتكون أساساً من مخطوطات إغريقية إلى مدينة القنوات « حلقة الاتصال الطبيعية بين الشرق والغرب » وفتحت مكتبة سانت مارك أبوابها لاستعمال الناس على نطاق واسع ، إلا أنها بقيت حتى العقد الخامس من القرن السادس عشر تفتقر إلى مكان ملائم حتى نقلت إلى القصر الفخم الذي أنشأه سانسوفينوSansovino.

لقد كانت مكتبة الفاتيكان أهم وأكبر مكتبة على الإطلاق شهدها القرن الخامس عشر. وقد أنشئت أول ما أنشئت في أڤينون نتيجة لحماس البابوات واجتهادهم في جمع المخطوطات لها، إلا أنه قد قضي عليها خلال الانقسام الديني الذي حدث هناك. وعند عودتهم إلى روما كان على الأخبار العظام أن يبدءوا من جديد ، ففي حوالى عام ١٤٣٢ سجل فرد من جماعة الانسانيين عقب زيارته لمكتبة الڤاتيكان «لم أجد شيئاً على الإطلاق يستحق الذكرnihil omnino memoria ويعتبر نيقولا الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٠) المؤسس الحقيقي للمكتبة البابوية الجديدة. وهو الذي بدأ حياته قسيساً متواضعاً (متعطشاً إلى الكتب Cert inesplicobile setedi libiوخاصة المؤلفات الإغريقية، والتي بسببها غرق في ديون لا آخرلها. وقد اكتسب مثل صديقه بستيشي خبرة واسعة في شؤون الكتب والمكتبات. ولذا عهد إليه كاسيمو بوضع لائحة تنظيم العمل في المكتبات الكبيرة، وهذه اللائحة التي وضعها استخدمت كمثال يحتذى به في تنظيم الأعمال في مكتبة أورينو وكثير من المكتبات الأخرى(١).

وكان نيقولا – أعظم محب للكتب – من بين البابوات الذين اعتلوا العرش في روما . ولقد تسلم ممن سبقوه قرابة ٣٥٠ مخطوطاً أضاف إليها مكتبة الخاصة. وبعد العيد الخمسيني في عام ١٤٥٠ وقعت في يده مبالغ كبيرة من المال فأرسل البعوث في كل مكان حتى اسكندیناوة والأماكن القصية من الشرق بحثاً عن المؤلفات الكلاسيكية وبمساعدة أمين مكتبته تورتللي Tor-telli وضع خطة لترجمة جميع الآداب اليونانية إلى اللغة اللاتينية، ولتنفيذ هذه الخطة جمع حوله حشداً هائلاً من الدارسين والنساخين، وعاد إلى روما سابق مجدها، وأصبحت مرة أخرى مركز العلم والثقافة في العالم، وكان إنشاء «مكتبة كبيرة وواسعة تصلح لأن يستعملها رجل العلم جزءا من برنامج البناء الذي رمى إلى إعادة تنظيم حي ليونين Leonine وكان نيقولا يأمل من وراء ذلك أن يقترن اسمه في هذا المجال ببطليموس (مؤسس مكتبة الإسكندرية) وتراجانTrajan (امبراطور روما في الفترة من ٩٨ – ١١٧م) الذى عرف بحبه للعلم والعلماء اشتهر بحب الشعب له) إلا أن موته المبكر قضى على كل المشروعات التي كان يرمي إلى تنفيذها. وعلى الرغم من ذلك فقد خلف ما يقرب من ٨٠٠ مخطوط لاتيني، وما يربو على ٤٠٠ مخطوط يوناني، وهي المجموعة التي تكونت منها الفاتيكان التي احتلت المكانة الأولى بين مكتبات إيطاليا.

وواصل سكستوس الرابع Sixtus(١٤٧١ – ١٤٨٤) مشروع نيقولا وأتمه على نحو ما . ولم يباشر بنفسه تنفيذ هذا المشروع، بل عن طريق رصد الأموال واختيار الأمير بلاتينا Platin الذي كان عضواً في جماعة الإنسانيين مما أوصله إلى الغاية المنشودة حتى قفز عدد المجلدات

---

(١) « عندما أراد كاسيمو المديتشي أن يمد دير سانت مارك في فلورنسا الذي بناه بمكتبة عول على خبير الكتب المشهو آنذاك توماس دي سارزانا Tomas de Sarzana ليعد له فهرساً يعتمد عليه في مشترياته واختيار الكتب. وأصبح توماس نفسه البابا فيما بعد، فانتشر فهرسه شرقاً وغرباً تحت عنوان:

The Inventory of pope Nicholas v, Which he, composed at the request of Casimo de Midici.

وقد اتخذ هذا الفهرس بجماله وترتيبه نموذجاً يحتذى عند إنشاء المكتبات الجديدة، وهذا الفهرس يبدأ بالكتاب المقدس كأشمل وأهم كتاب في اللاهوت يتلوه مؤلفات آباء الكنيسة، ويلي مؤلفي اللاهوت – كقسم ثان – الفلاسفة ويأتي أرسطو في بدايتهم. وتشكل العلوم الانسانية القسم الثالث ، ويحتل الشعراء القدامى فيه المكان الرئيسي. أما القسم الرابع وهو الشريعة، فهو مفقود للأسف من النسخة التي وصلت الينا . ولكن كما رأينا من الوصف السابق لمكتبة أوربينو التي رتبت تبعاً لهذا الفهرس ، يتضح أن هذا القسم – الشريعة – كان موجوداً في الفهرس الأصلي ».

Fronz Wickhoff = " die bibliothek julius 11" jahrbuch der preussischen kunstsammlungen xlv, 1893 53 - 54.

G. Stforza = Lapatria , jafamiglia. ele giainezza di Mapa Niccola v. Lucca 1884. appendixA

بمكتبة الفاتيكان إلى ٣٥٠٠ وأعدت لها حجرات فخمة صمم ديكوراتها أحسن الفنانين آنذاك ، وانقسمت المكتبة إلى قسمين: مكتبة عامة انقسمت بدورها إلى قسم لاتيني وقسم يوناني، ومكتبة الحفظ وقصد بها أن تخصص لحماية الكتب النادرة. وكان أمين المكتبة تفتح أبوابها للعامة، ولم تكن هناك صعوبات تحول دون إعارة الكتب أو الصحف والتي بقي بعضها حتى الآن شاهداً على ذلك . وبذلك . يقرر الشاعر آريوستو Ariesto بدون تحيز بأن « سكستوس قد جمع الكتب القديمة من جميع أنحاء العالم لاستعمال العامة »(١).

وإن مبدأ فتح المكتبات للاستعمال العام لإحدى الخصائص التي تميزت بها مكتبات عصر النهضة عن المكتبات في العصور الوسطى. ولكن هل كانت هناك فروق أساسية بين الاثنتين؟ الإجابة نى هذا السؤال جزئياً بالإيجاب وجزئياً بالنفي، فقد اختفى نهائياً جو العصر الوسيط، فلم يعد رجال الأدب والإنسيون يجتمعون في حلقات ببلاط النبلاء ، وينظرون إلى المكتبة على أنها مكان لتبادل وجهات النظر في الأفكار العلمية والأستمتا ع الفني ولكن كان الغالب بينهم الرغبة المتأججة إلى مصادر الآداب اليونانية والرومانية الأصيلة، وهي الرغبة التي أشعلها بترارك في القرون التي سبقت، ولكن حماس القرن الرابع عشر ترك جانباً لتحل محله موضوعية في التفكير أكثر هدوءاً ووضوحاً ، وعلى أي حال فإنه بسبب هذه الرغبة لم يكن مؤلفو العصور الوسطى يغادرون المكتبة.

وفي مكتبة نيقولا الخامس كانت المؤلفات الكلاسيكية والإنسانية والكلامية ومؤلفات الآباء الكنسيين، توضع جنباً إلى جنب على رفوف المكتبة. ولم تكن هذه الحقيقة لتصدق فقط على مكتبة الفاتيكان، التي كانت أولا مكتبة للبابا، ولكنها كانت أيضاً تصدق على المكتبات الأخرى الكبيرة. ولقد استوحى الفنانون رسومهم التي زينوا بها جدران مكتبات العصور الوسطى من هذه الصفات العامة التي تميز بها العصر الوسيط كما فعل فنانو العصور الوسطى المتأخرة ومنهم ميلتزو دافورلي Melozzo da Forli الذي اختار وحدات رمزية تعبر عن الفنون الجميلة. وكليات العلوم في الجامعات واتخذها موضوعاً لمظلماته (رسوم جصيّة) التي زين بها صالات

---

(١) Di libri antiqui ... per public, uso Sisto da tutto il mondo fe, racorre Ariosto "Saturo vl (vll) 139-141 in his opere Minori, ed Giuseppe Fatini . Florence, 1915 for an archaic translation see :Ariosto`s Satyres in Seven Fanaus discoureses .. in English by Garius Markham . London, 1708.

مكتبة أوربينو كما قام روفائيل نفسه بزخرفة مكتبة يوليوس الثاني Juluisii الخاصة المعروفة باسم Stanza della Signatura برسم تصويري يمثل فهرساً لكتاب (١).

وفيما يتعلق بالمجلدات الفردية في مكتبة عصر النهضة، فقد كانت تختلف إلى حد بعيد عن مخطوطات العصر الوسيط. وسبق أن رأينا كيف أن بستيشي كان يهتم اهتماماً بالغاً بصناعة الكتاب. إلا أن ترتيب الكتب على الرفوف وطريقة تصنيفها بقيت كما كانت في العصور الوسطى، إذا لم تكن هناك حاجة ملحة تستدعي تغيير النظام ، على الرغم من الزيادة الهائلة التي طرأت على عدد الكتب بسبب ما جد من المؤلفات الكلاسيكية ومؤلفات الإنسانيين، وكان ذلك كفيلا بتغيير الطريقة التي تعالج بها الكتب. ولم تحظ المطبوعات – التي بدأت المطابع تنتجها – باهتمام محبي الكتب من أمثال مونتفلترو. ولم يبدأ هذا الاهتمام حقيقة إلا في نهاية القرن الخامس عشر. تلك هي المعلومات التي أمدتنا بها المصادر التي تناولت بالدراسة مكتبات سانت مارك وفلورنسا، وهذا ما نجده في مكتبة الفاتيكان، فالكتب المطبوعة والمخطوطات المربوطة لم تزل محفوظة في حالة سليمة في الحجرة الجميلة التي كانت بها منذ عصر النهضة في سيزينا cesenaوالتي أقامها مالا تستانوفيللو Malatesta Novello في عام ١٤٥٢ . وحتى مكتبة لاورنت التي شيدت تبعاً لتصميمات مايكل انغلو Machel Angelo بقيت على حالتها القديمة.

وقد بقيت مكتبة زوتفن Zutphen مثل مكتبة سيزينا على حالتها الأصلية لم تتغير ، وهذا مما ينهض دليلاً على أن مكتبات شمال جبال الألب ظلت طوال هذه الفترة لم تغير من طريقتها في ترتيب الكتب. ولماذا يحدث العكس إذن؟ طالما كانت إيطاليا في ذلك الوقت هي رافدة كل تطور في شئون المكتبات ، وكانت كل من انجلترا وفرنسا وألمانيا تتبعها فيما تحدث من تغييرات.

ولم تبد انجلترا إبان حروب الوردتين نحو الثقافة الجديدة إلا القليل من الاهتمام والتشجيع.

---

(١) تمدنا الرسوم الزيتية في Stanza della Signatura بصور مختلفة تمثل فهرساً لكتاب، وهو أمر ذو أهمية خاصة في حجرة صممت لاستعمالها في الأغراض اليومية... فالأشكال المجازية الجالسة فوق العرش في المكان الأعلى تمسك الكتب في أيديها . وتمثال العدل وحده هو الذي يمسك في يده السيف والميزان. أما الأناجيل التي يرجع إليها المسيحيون فتحملها الملائكة الى المؤمنين، والآباء الأربعة المقدسون قد اجتمعوا حول العشاء الرباني يكتبون الكتب ويقرونها، وهناك أيضاً كتب بعثرت على الأرضية ، وقد ميز الديسون والعلمانيون عن طريق امتلاك الكتب، فمثلا هؤلاء الذين يستمتعون بالحضرة الموسوية نجد في أيديهم لفافات ومخطوطات، أما تلاميذ مدرسة أثينا فنجد في أيديهم الكتب والالواح. ان تأليف ونسخ وقراءة وشرح الكتب في الطابع العام في كل أرجائها بحيث لا نخطئ تحديد كل ناحية من هذه النواحي في هذه الصورة . حتى الفيلسوفان العظيمان قد مثلا فقط هنا بكتابيهما المشهورين، فالبابا يمسك كتابا يتمشى مع قوانين الكنيسة، وجوستنيان يمسك بكتابه الشهير Corpus أمامه، وعلى الأصداف المنقوشة نجد الكتب في جانب في توابيت من مرمر، وفي الجانب الاخر كتب تحترق. ولا نجد تصويرا أعمق من هذا تلعب فيه الكتب الدور الأكبر حيث كل شيء فيه يبدأ وينتهي بالكتب. مترجمة عن : Eranz Wickoff, Loc. cit

ولقد باءت بالفشل كل محاولات شوسر Chaucer لتوثيق الصلات بين وطنه انجلترا وبين إيطاليا [1] ولا يستثنى من هذه القاعدة سوى همفري Humphery دوق غلوكسترو Gloucestor ابن هنري الرابع الذي كان شاذا في ناحية أخرى ، فأقبل بحيوية على دراسة المؤلفات الكلاسيكية ، واستعار الكتب من جماعة الأنسية الإيطالية، وسمح لهم بإهدائه بعض مؤلفاتهم . ولقد آلت مجموعاته الشاملة – عن طريق الإهداء – إلى مكتبة جامعة اكسفورد مما أدى إلى بناء مكتبة الدوق هنري في عام ١٤٨٨ .

وفي فرنسا أيضاً ظلت ثقافة العصر الوسيط مسيطرة خلال القرن الخامس عشر. لقد بدأ العصر الجديد هنا (في فرنسا) بسبب الحملتين اللتين قام بهما كل من شارل الثامن ولويس السابع على إيطاليا ، فقد استولى أولهما على أجزاء من المكتبة الأرغونية في نابولي، وعاد بها إلى فرنسا في عام ١٤٩٥ . وبعده بخمس سنين استولى لويس على مكتبة اسفورزا في بافريا كغنيمة حرب، واتخذت هذه المكتبة طريقها إلى قلعة بلوا Blais حيث أصبح للملك مكتبة زاهرة بذخائر الكتب ، وظهر في ذلك الوقت بين طبقة النبلاء الفرنسية بعض محبي الكتب، وأعظم مثال من بينهم كان راعي كنيسة لويس الكاردينال أمبواز Amboise ، الذي كان يظهر اهتماماً خاصا بالمخطوطات الإيطالية، وقام بشراء أجزاء أخرى من المكتبة الأرغونية. إلا أن الروح الحقيقية لعصر النهضة بدأت تنتشر إبان حكم فرنسيس الأول الذي أمر بنقل مجموعات قلعة بلوا إلى قصره الضخم في فونتين بلو Fontainebleau حيث أقام مكتبة تضارع من جميع الوجوه المكتبات الإيطالية الكبرى وعين العالم اللغوي ورجل القانون بيديه Bude رئيساً للمكتبة Maitre de la librairie ، بل وأكثر من هذا نجد في بلاطه لاسكاريس الذي ورد ذكره قبل ذلك في فلورنسا – والذي أخذ هنا يعنى بالمخطوطات اليونانية لفرنسيس الأول، كما كان يفعل سابقا لآل مديتشي. وعلى الطريقة الإيطالية فتحت المكتبة أبوابها لكل راغب في الاطلاع. وفي الحقيقة كان فرنسيس نفسه يقوم بالإنفاق على نسخ المخطوطات القيمة.

وابتداء من حكم شارل الثامن كانت المكتبة تحتوي على كتب مطبوعة، ولكنها لفترة طويلة كانت تأتي في المرتبة الثانية من الأهمية بعد المخطوطات. وعلى أي حال كان إدخال نظام الإيداع القانوني بواسطة الملك الفرنسي خطوة على جانب كبير من الأهمية طبقاً لما كشفت عنه البحوث التي أجريت حديثاً، فإن هذا النظام قد جاء نتيجة لعاملين، عامل الرقابة على

---

(١) هناك إنتاج فكري كثير عن تأثير إيطاليا على شوسر، ولكننا لا نعرف الا قليلا عن استعماله للمكتبات الايطالية. انظر:

R.A.Pratt = Chaucer and the Visconti Libraries ELH, A journal of English Literary Histo-

المطبوعات، وعامل الامتيازات التي كانت تمنح للكتب المطبوعة. هذان العاملان استخدما كوسيلة لإجبار المطابع على تقديم نسخ مجانية للملوك، ومن ثم لمكتباتهم. هذا ما نلمسه في قوانين فرنسيس الأول١٥٣٧/١٥٣٨ . وسوف نرى في الفصول القادمة كيف أن كثيراً من الحكام قد حذوا حذوه، حتى أصبح قانون حق الطبع copyright اليوم يشكل أعظم مصدر من مصادر تزويد المكتبات العامة الكبيرة.

ولكن تأثير القرن الخامس عشر الإيطالي Quattro -- cento على ألمانيا كان أعظم وأكثر استمرارا ودواماً عنه على كل من انجلترا وفرنسا [١]. فإن التيارات الجديدة قد جعلت مجالس الإصلاح في كونستانس وبازل تتجه عبر جبال الألب إلى إيطاليا، وكان من بين الرواد جامعو المخطوطات الذين سبق ذكرهم ، ومن أبرزهم الشخصية الفذة أينوس سيلفيوس بيكولوميني Aeneus Silvius piccolomini (بيوس الثاني فيما بعد) وكانت جماعة الإنسانيين الألمانية ترفض تماماً وجهات نظر العصور الوسيطة، كما رفضت الأخذ بآراء أهل الكلام، واتجهت أول ما اتجهت إلى التعليم الرسمي والمعرفة الصحيحة من مصادرها الكلاسيكية الأصيلة. ولكن بالتدريج بدأ اتجاه أكثر قوة يأخذ مكانه، ولم تلبث الطبقات المتوسطة الألمانية أن شاركت بقوة أكثر مما في البلاد الأخرى في الحركة الإنسانية، وعملت على نشرها ووصلها مباشرة بالجهود التعليمية التي ذكرناها فيما بعد.

وكان للنظريات الإنسانية أيضاً تأثيرها القوي على شؤون المكتبات الألمانية، وإن التطوير الذي شهدناه في الفصل السابق وخاصة في المدن ظل كما كان من قبل مع زيادة بطيئة تدريجية في مجموعة الكتب ونسبة الكتب القديمة والإيطالية بها. وكان نيقولا من كوزا Nicholas of cusa (المتوفى ١٤٦٤) أمير الكنيسة العظيم والباحث الأصيل أول من فتح مكتبته للثقافة الجديدة، وكان ينافس الإيطاليين في جمع المخطوطات الكلاسيكية . ونذكر من أتباعه أوجسبري Augusbury وجوسمبروت Gosesmbrotوالبارون الفرنسي أولبدخت فون آيب Albert von Eyb، وفي مكتبة البلدية ومكتبات الكنائس في مدينة نورمبرج يمكن للإنسان أن يلاحظ ازدياد قوة الآداب الكلاسيكية والإنسانية وذلك منذ الثمانينات في القرن الخامس عشر. وحوالى هذا الوقت فإن فيليب كونت بلاتين للراين شكل بلاطه في مدينة هيدلبرج تماماً على الطراز الإيطالي، واحتفظ بعلاقات ثقافية بينه وبين رجال على درجة كبيرة من الأهمية من أمثال فون دالبرج Von

---

ry, vl, 1939, 191- 200.

(١) هناك دراسة عميقة ودقيقة عن هذا التأثير على ألمانيا هي :

Heinrich Kromm = Deut sche bibliotheken unter dem einfluss von Humanismus und Re-

Dalbergواجـر يكولا Agricolaوغيرهما واكتسبت مكتبة بلاتين صبغة إنسية قوية في حين احتفظت مكتبة جامعة هيدلبرغ ، ونظيراتها من الجامعات الأخرى ، بتقاليد العصور الوسطى حتى القرن السادس عشر.

وكانت شخصية الطبقة المتوسطة من جماعة الإنسانيين تبدي رغبة ملحة في جعل الآداب اللاتينية والرومانية في متناول الطبقات الدنيا عن طريق ترجمتها إلى اللغة الوطنية. وكان نيقولا فون وايل Nicola von wayle كاتب مدينة اسلتجن Esslingenمن أشد المتحمسين لهذه الترجمات. وبالقرب منه كانت تعيش الأميرة بلاتين ميخت Mechthild platineالتي أنشأت لنفسها مكتبة في ضيعتها في روتمبرغ Rottembergفي طريق نيكار Nicar، وشغلت نفسها بجمع المؤلفات الألمانية القديمة.

وفي نفس الوقت كان اختراع جونتبرج قد انتشر شرقاً وغرباً بواسطة الطابعين الألمان، ففي نهاية القرن الخامس عشر ازدهرت تجارة الكتب ازدهاراً عظيما بحيث غطت اوروبا الغربية كلها تقريباً ، وكان مركزها الرئيسي مدينة بازل Basel حيث جمع زعيم جماعة الإنسانيين الشمالية أراسموس Erasmus جماعة بازل حوله. وعن طريقهم كان هناك تعاون تام بين الحركة العلمية والطباعة ، فعلى حين قام الانسيون بعمليات التحرير قام أتباع جوتنبرج وبخاصة فروبن Froben « أمير الطابعين الألمان » بنشر المؤلفات الكلاسيكية والإنسانية. ومن بازل انتشرت التيارات التجارية والثقافية الجديدة إلى ليونز Lyons مركز طباعة في اوروبا الغربية ، كما انتشرت أيضاً إلى فينسيا حيث كان يعمل ألدوس مانيتيوس Aldus manutius كما عاش في بازل أيضا اللغوى العظيم نجاردوس Sichardus الذي نعلم الشيئ الكثير على زياراته المنتظمة عن إلى الأديرة القديمة رغبة منه في الحصول على مخطوطات صالحة للنشر.

وعلى أي حال فإن اهتمامنا الأكبر سينصب على آثار الطباعة على حركة تطوير المكتبات، ويمكننا هنا أن نذكر أثراً مزدوجاً لهذا التطور : فحتى هذه الفترة كانت المكتبات والمناسخ مرتبطة ارتباطاً وثيقاً ببعضها البعض في كل وقت كما بينا من قبل . ويكفي المرء فقط أن يتذكر الأكاديميات الوثنية والأديرة المسيحية، وجامعي الكتب في الأزمنه القديمة والعصور الوسطى، وأيضاً في عصر النهضة الايطالي، أما في خلال القرن السادس عشر فقد انفصمت العلاقة بين صانعي المخطوطات وجامعيها إلى الأبد، وهذه هي النتيجة الأولى للفن الأسود (الطباعة) . أما الأثر الثاني فيتمثل في الزيادة الهائلة في إنتاج الكتب، وظهور العديد من المشاكل المكتبية غير المتوقعة والمتصلة بهذه الزيادة. وكان أول شيئ يحتاج إلى التغيير هو نظام المطبوع ترتيب الكتب، وبذلك - كما سبق أن لاحظنا في إيطاليا وفرنسا - أخذ الكتاب المطبوع مكانه إلى جانب المخطوط.

ويصدق هذا القول أكثر ما يصدق على مكتبة المؤرخ الإنساني هارتمان اسكدل Hartmann Schedel من مدينة نورمبرج (المتوفي عام ١٥١٤) فإن جزءاً من مجموعته أتى من ضيعة ابن عمه هيرمان Hermann والباقي جمعه خلال رحلاته إلى إيطاليا وزياراته للأديرة الألمانية، وكثير من النصوص قام على نسخها بنفسه. ولكنا نجد من بين الـ ٦٠٠ عنوان التي يتضمنها فهرس مكتبته حوالي ثلثها مطبوعا. لقد كان اسكدل يحب دائما أن يزخرف كتبه بالأمثال والصور الصغيرة ويكتب بداخلها نبذات بيوجرافية (ترجمة حياة) عن مؤلفيها. ولقد حذا حذوه مواطن له ينتمي إلى جيل آخر هو بيركهيمر pirkheimer فقد كان مثقفاً ومتعلماً ، وأدار وجهه شطر إيطاليا ليستقي من نهضتها، ولكن بتفكير الطبقة الوسطى الألمانية، إن الطريقة التي أدار بها مكتبته الباهظة التكاليف والتي اشتملت بين نفائسها على المجموعة الكاملة لطبعات الدين Al-dine اليونانية ، هذه الطريقة تظهر بشكل عملي الشعار الذي كتبه على لوحات كتبه: له ولأصدقائه Sidi et amicis ، وعلى قدر ما كان بيركهيمر لنورمبرج كان بوتنجر peutinger لاوربرغ، فقد كانت مكتبته موضع تقدير الانسانيين جميعاً ، إذ كانت حسنة التصنيف ، ، جيدة الفهرسة تربو مجموعاتها على ٢١٠٠ مجلد من بينها ١٧٠ مخطوطاً فقط.

وكان كل من بيركهيمر وبوتنجر صديقاً حميما لما كسيمليان الأول Maximilian الذي ارتفع ليصبح العصب العقلي للإنسانيين الألمان، والذي دفع بحماس فن الطباعة إلى الأمام، وليس صحيحاً ما ينسب إلى هذا الحاكم من أنه هو الذي أنشأ مكتبة البلاط الملكي في فيينا. فالكتب التي جمعها أيام كان أميراً والمجموعات التي ورثها عن أبيه والمجموعات التي أضيفت بعد ذلك ، احتفظ ماكسيمليان بجزء منها في وينر – نيوستادت Wiener - Neustadt وبجزء في إينزبروك Innsbruk ووزعت بقية المجموعة على قلاع أخرى . ويبدو أن فرديناند الأول Ferdinand هو الذي وضع الأسس الحقيقية لمكتبة فيينا.

ويمكننا لو شئنا في هذا المجال أن نعدد سلسلة كاملة من مكتبات الانسانيين.

لقد أصبح جامعو الكتب من الكثرة والشعبية بمكان بحيث وضعهم الشاعر الهجائي برانت Brant بين شخصيات شعره المضحكة. ولنذكر فقط مكتبة رشلين Reuchlin الغنية بالمخطوطات اليونانية والعبرية، ومكتبة بوتس رينانوس Beatus Rhenanus التي مازالت حتى يومنا هذا في حالة جيدة في مدينة شلتستادت Schlettstadt وأخيراً المكتبة التي أقامها القديس تريتهايم Tri-theim في اسبونهايم Sponheim وهو الشخص الذي قارنوه بكاسيودوروس لأنه بذل قصارى جهده في حفظ ذخائر المخطوطات القديمة للأجيال التي تلت، فبينما يقف كاسيودوروس في بداية هذه النهضة يقف تريتهايم في نهايتها. وكاسيودوروس ، كما أشرنا من قبل ، هو الذي

قرب الفجوة التي كانت تفصل بين العصور القديمة والعصور الوسيطة ، وفي فيفاريوم أرسى النماذج الأولى لمكتبات الأديرة ، وتريتهايم على العكس من ذلك ، هو الذي بدأ المحاولة الفاشلة لنشر حركة الإنسانية في أسبونهايم. ومجموعات الكتب التي جمعها بالعذاب وشق الأنفس بددها من بعده خلفاؤه. ولم يطل الوقت حتى اختفت مكتبة اسبونهايم شأنها شأن بقية مكتبات الأديرة في طول البلاد الألمانية وعرضها.